الفصل السابع والعشرون
الجزيرة العربية والسودان
في بعض المخوطات السودانية

تتناول هذه الدراسة مخطوطات معينة لمؤلف سوداني هو محمد صالح ضرار (١٨٩٢ – ١٩٧٢ م) الذى أوقف حياته على دراسة وتدوين تاريخ شرق السودان . وتتحدث دراسات هذا المؤرخ عن مدن شرق السودان وقبائله . وهذه قائمة بتلك الدراسات :

١– تاريخ إقليم البجة العام .

٢ – تاريخ مدينة سواكن والبحر الأحمر .

٣ – تاريخ قبيلة الهدندوة والحلنقة .

٤ – تاريخ قبيلة الأمارأر .

٥ – تاريخ قبائل بني عامر .

٦ – تاريخ قبائل الحباب والحماسين بالسودان وإرتريا .

في مخطوطة[٢١] تاريخ إقليم البجة فصْل عن أصل البجة حيث رجع فيها إلي ما كتبه السابقون عن أصل البجة ؛ وهو يقول بأنه " قد اتفق كل من داوود روبيني اليهودي والمسعودي على أنهم من أبناء كوش بن كنعان ، وبذلك أصبح البجة في رأيهما من الساميين الذين نزحوا من بلاد العرب " .ويضيف بأن " الدكتور جواد علي أورد نقلا عن استرابو أن العرب كانوا يسكنون إلي الطرف الثاني من الخليج العربي في البحر الأحمر ما بين

---

[٢١] بتوفيق من ا لله تمت طباعة هذه المخطوطات .

مصر والحبشة على الساحل المسمى بسكان الكهوف تمييزا لهم من عرب الجزيرة " .

ويورد ما قاله نعوم شقير عن البجة وأنهم وشبه السود " لم ينشآ فيها (في إفريقيا) بل هاجرا إليها من آسيا عن طريق مصر والبحر الأحمر من عهد بعيد . أما ملامحهم وعاداتهم وأخلاقهم فجميعها عربية محضة " .

ويخلص من ذلك إلي القول بأن " كل قول لا يعترف بأن أصل البجة من جزيرة العرب لا تسنده أي حقيقة " .

ونراه يكتب ما قاله جرجى زيدان الذي ذكر " أن أمة الشاسو من عرب الشام هاجرت إلى إقليم البجة واستوطنت بين النيل والبحر الأحمر ".

وتحدث عن محاولات الأركيولوجيين لمعرفة أصول البجة وما توصل إليه السير ولاس بدج الذي " ذكر بأن البحث في مقابر البلامس حول جبل مامان أوصل إلى نتيجة لا تقبل الجدل بأن جماجم أصحابها سامية أي أنها من عنصر راق " .

ويقرر الدكتور جواد علي بأنهم بقايا ثمود كانت على سواحل البحر الأحمر " .

ويبرز ما جاء فى دائرة المعارف الانجليزية " أن لفظة البجة تطلق على مجموعة من قبائل واسعة الانتشار وهم من قدماء المهاجرين الساميين " .

وكما رأينا ... فإن أكثر المؤرخين درجوا على القول بأن البجة من عنصر سامي نزح منذ قديم الزمان إلي ذلك الإقليم " . هذه هى بعض الآراء التى رجع إليها المؤرخ السوداني ضرار لإبراز أصل البجة على أنه انحدر من الجزيرة العربية .

وتعد هذه المخطوطة التى تقع في ٩٠ صفحة من الفولسكاب دراسة عامة عن تاريخ شرق السودان عبر القرون مبتدئة بعصر الفراعنة ومنتهية بالمهدية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي . ولم ينس الكاتب أن يتحدث عن هجرة القبائل العربية التى أورد أسماءها والتي سكنت مع قبائل البجة في شرقي السودان ثم امتزجت بهم .

هجرة العرب قبل الإسلام :

قبيلة بَليّ :

كانت أشهر تلك القبائل التي نزحت من الجزيرة العربية إلى شرق السودان قبيلة بلي وقد كتبها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى بفتح الباء وكسر اللام وياء مشددة بالفتح .. والنسبة إليهم بَلَوِيّ .

وتعد قبيلة بلي من أقدم القبائل العربية التى هاجرت إلي هذه الديار البجاوية بعد الشاسو وثمود وغيرهما . وكانت هجرتها قبل ظهور الإسلام بقليل ، وهى بطن من بطون قضاعة التى يقال عنها في كتب المؤرخين بأنها أول من نزح من قبائل معد . وكان السبب في نزوحها حرب وقعت بينها وبين ربيعة بسبب فتاة ربيعية يعشقها رجل قضاعي من بنى نهد ، فانتصرت مضر وأنمار وإياد لربيعة وانتصرت عك لقضاعة – فأجلوا عن أماكنهم ويمموا نجدا ما عدا قبيلة بلي فإنها يممت اليمن ونزلت مأرب ثم ارتحلت منها إلي ما بين تيماء والمدينة .[٢٢]

---

[٢٢] تاريخ إقليم البجة .

وقال ابن خلدون إنهم اجتازوا إلي العدوة الغربية من البحر الأحمر وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك سائر الأمم ، وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم ، وحاربوا الحبشة فأزهقوهم ، وضايقوا المصريين[٢٣] .

ويضيف ضرار بأن " قبائل بلي هى أول من نقل اللغة العربية إلي إفريقيا ، فجاوروا قبائل البجة ولكنهم لم يختلطوا بها . فأطلقت البجة كلمة " بلو بيت " على اللسان الذى تتكلمه بلي أي اللغة العربية ، وهى ما لم تكن مفهومة عندهم ، ولذلك نسبوها لأول من تكلمها في ديارهم . كما أن البلي كان عنصرا عربيا يترفع عمن سواهم من أمم إفريقيا ، واعتبروه سيدا عليهم إذ وفد ومعه أخلاق عالية ، وادعى السيادة على أمة البجة بما جلبه معه من الفضائل ، كما أطلق على كل سيد من بلي " بلويون " وتعريبها رئيسنا أو سيدنا أو بلويب وبالبني عامرية بلوايي أو بلواي ، وكلها تؤدى لمعنى الزعامة . كما أن البجة والبجاوية تؤدى لمعنى عكس ذلك . وكان البليون يأنفون من مصاهرتهم أو مخالطتهم حتى إذا ضاعت عروبتهم اللغوية اتخذوا البجاوية لسانا لهم[٢٤] .

ويضيف مؤرخ تاريخ إقليم البجة محمد صالح ضرار بأن قبائل بلي وقفت حائلا دون انتشار المسيحية في شرق السودان حتى جاء الإسلام مع العرب فاعتنقوه . ويبيّن أنهم كانوا وثنيين كالعرب في جاهليتهم[٢٥] .

---

[٢٣] نفس المصدر .

[٢٤] تتكلم قبائل البجة لغتين هما البجاوية أو التى يطلق عليها أيضا الهدندوية نسبة إلي قبيلة الهدندوة الكبيرة ، واللغة الثانية هى التجرية وتسمى أيضا البنى عامرية . وهما مختلفتان .

[٢٥] تاريخ إقليم البجة .

وقد أشار ضرار في مخطوطته تاريخ سواكن إلي أن المسعودي عند ذكره لمدينة سواكن أوضح أنها أقل من ميل في ميل ، وبينها وبين البر الجبشي بحر قصير يخاض ، وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك ". ويعلق ضرار بأن ملكهم من قبيلة " بلي " التى هاجرت من أقصىَ الشحر وحضرموت إلي الحجاز ثم إلي سواحل شمال البحر الأحمر . ويقول إن الخاسة ارتحلوا إلي توكر وضواحيها تحت ضغوط القبائل التى زاحمتهم على الإقامة سواكن ومن بقاياهم أبناء عمير بن محمود .

ويتعقب هذا المؤرخ قبيلة بلي في كتاباته فتراه يذكر في كتابه تاريخ الحباب والحماسين (كراسة في ٤١٢ صفحة) ، عند الحديث عن عَدْ نايب (أيْ آل نائب) : (أسس بقايا ملوك البجة من البلويب (بلو) مملكتهم في إقليم سَمْهَرْ يارتريا وذلك بعد زوالها من شمال إقليم البجة بعد واقعة أسَرَمَ درهيبْ على يد الشيخ عامر بن على نابت الشاع الدينابى (منسوبة إلي شاع الدين) الجعلى . ولكنهم عجزوا عن حفظ استقلالهم .. حتى كانت سنة ١٦٩٧ م إذ زحف النجاشى على إقليم سمهر واستولى على مصوع ، وترك فيها أميرا من قبله .. وسافر النايب إلي أكسوم وقدم ولاءه للنجاشى . ومن ذرية البلو أولاد موسى .

واتصل المؤرخ في أسفاره إلي تلك الأصقاع ببقايا قبيلة بلي ويقول (إنه) أقام ضيفا عند زعيم " قبيلة عسوس من البلو " وهو الشيخ محجوب أبن عبده بن عبد ا لله البلوي " وأخبرنى أن جدهم حضر بأبنائه وعائلاته من قبيلة تجاورهم وهم أبناء معلّم " .

لقد كان المؤلف مؤمنا بعروبة السودانيين وهو يذكر في كتابه " تاريخ الهدندوة " بأن أول من أنكر عروبة السودانيين هم مؤرخو الإفرنج والغرب من المستعمرين ، ويجب على كل سوداني ألا يلتمس عروبته منهم بل هي حق احتفظنا به في طيات المصاحف والصدور وحفظناه عن ظهر قلب " .

ثم يأتي بعد ذلك بنسب قبيلة الهدندوة ويقول وهأنذا أضع بين يدى القراء الصورة الأصلية كما وجدتها بخط صاحبها .

ويضيف المؤلف ضرار قائلاً بأنه " في سنة ١٩٠١ م أدركت الشيخ أوكير (بالعربية الخير) شقيق الشيخ طه المذكور وقد كان مؤذناً بالجامع الشافعى بجزيرة سواكن ولا تقل سنة عن التسعين عاما ، وهو من الحسناب ذرية الشيخ أحمد بن عجيل اليمانى العمري القرشي " .

إن موضوع أصول القبائل التى تسكن في شرق السودان شغلت ذهن المؤلف كثيرا . وفي كل ما كتبه عن القبائل الكبرى أوضح الأصل العربي لتلك القبيلة كما رأينا حين تحدث عن بلي وعن الهدندوة . وقد فعل ذلك في بني عامر والأمارأر والبشارين . ومن المفيد أن يذكر هنا أنه حين أرخ للقبيلتين الأخيرتين وهما الأمارأر (أى أبناء عمار) ، والبشاريين (أبناء بشار) فإنه أرجع نسبهما إلي الزبير بن العوام . والكتاب في حوالي ١٠٠ صفحة من الفولسكاب فيه مقدمة عن تاريخ الزبير وأولاده عبد الله وعروة ثم ما حدث من هجرة هذا الرهط إلي السودان واختلاطهم بقبائل البجة واستيلائهم على سلطة تلك القبائل لينشئوا مملكة الأمارار ومملكة أبناء عمومتهم البشاريين .

لم تبق من قبائل شرق السودان الكبرى التى لم نشر إليها غير قبيلة الحباب . وقد أفرد كما ذكر من قبل كراسة قوامها ٤١٢ صفحة لهذه القبيلة التى تنضوى تحتها عدة بطون فنراه يذكر في هذه المخطوطة في صفحة ١١٧ قوله " سمعت من الدكتورة هيرما[٢٦] الألمانية صوت حسين محمود كنتيباى يقول إن جده هو أبو جهل عمرو بن هشام وإنه ليس عتبة بن أبى لهب بخلاف ما دون في كتب الأقدمين وقول عموم الحباب .

وفي أصل الحباب يذكر ضرار (نفس المصدر صفحة ٣) بأن كَنْتيبايْ حسن محمود يقول بأن بيت النظارة (للحباب) ينتسبون إلي الفضل أبن العباس بن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . والفضل .. كان شديد السواد وهو القائل:

وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجلدة في بيت العرب

أما الأسماء العربية الإسلامية فإن الحباب كسائر قبائل إقليم البجة تنحوا عنها كمانسوا لغتهم العربية .

وفي صفحة ٢٥٧ من هذه المخطوطة يتحدث المؤلف عن إحدى بطون قبائل الحباب ، وهى قبيلة أَلْمَدَة ويذكر قائلا إن بعض شيوخها يقولون " إنهم سكان جزيرة عيرى الأصليين ، وهى واقعة شرق عقيتاى (قرية) بالسودان ، حتى كان انتشار الإسلام فهاجر إليها جماعة من مسلمي العرب اليمنيين واختلطوا بهم ونشروا الإسلام والعربية بينهم . ولكنها اختلطت بلغتهم التيجرية فنتج من ذلك اللغة الحبابية التى يتكلم بها سكان ما بين توكر ومصوع .. ثم نزل بهم بعض الأمويين الذين فروا من العباسيين .. فاستوطنوا جميعهم الجزيرة والجزائر الصغرى المجاورة لها ،

---

[٢٦] لفظة كنتيباى حبشية تطلق على نظار القبائل مثل الحباب (نفس المصدر صفحة ٥) في الهامش .

وأنشأوا القصور والعمارات ، وانتزعوا سلطة الجزيرة من رجل يقال له المدايْ .. أو الماضى ، وكانت السفن تمر بالجزيرة من الشرق للغرب ، واتسعت تجارتها ومبانيها حتى إنهم اضطروا أن يبنوا بيوتا تحت الأرض بناء محكما ، وقصرا جميلا للحاكم لا تزال آثاره باقية لليوم . وكل من يأتى للتنقيب في الجزيرة يكتفى بالبحث في هذا القصر . واستوطن الجزيرة أحد تجار اليمن وتزوج بامرأة من أَلْمدة (بنت حسين قيآى) ثم حدث بينه وبين أحد تجار الجزيرة خلاف اضطر الأخير بسببه أن يقتل التاجر الذى ترك زوجة حاملا ثم وضعت ولدا . وكان أهل الجزيرة يستعملون جمجمة التاجر مكيالا بدلا من الكيل بالمد . ولما ترعرع وبلغ الولد أشده تشاجر مع أحد الغلمان الذى قال له إن المُدَّ الذى يكتال به أهل الجزيرة هو جمجمة والدك . فسأل أمه فأخبرته الحقيقة بعد إلحاح وتهديد ، ثم بارح الجزيرة في إحدى السفن وعاد ومعه عدة سفن وحاصر الجزيرة وخاف أهلها ، وفروا إلي البر ، ومات بعضهم . أما الأمويون فساروا حتى وصلوا خور بركة بمن تبعهم ، ثم نصبوا خيامهم في مكان يقال له مامان ، وبدأوا في بناء منازل من الحجر والطين (لا تزال باقية إلي اليوم) . ويضيف ضرار بأنه لم يستوف البحث عن الأمويين . ولكنه قرأ على أحد الأحجار (شواهد القبور) في جزيرة عيرى الاتى (بسم الله الرحمن الرحيم . كل شيء فان ، ولا يبقى إلا وجه الله الكريم . إله السموات والأرض . هذا .. محذوف لله أمر كلنا سنعود والله حي دائم موجود

الرحمن الشفيع جهرا يراكم ولكم آيات مبيع لا تنهاكم

كما توجد أسماء على بعض القبور وتاريخ الوفاة .

وكل شيء في هذه الجزيرة كما يقول هذا المؤلف يحتاج إلي بحث مستفيض . وقد زار هذه الجزيرة المستر كروفوت والميجر هبرت مدير المواصلات والسير نيوبولد وغيرهم كثيرون ولم يذكروا عما وجدوه غير الحجارة المكتوبة ونظام المباني . ١ . هـ . والتواريخ التي وجدت على شواهد القبور كانت في القرنين الخامس والسادس الهجري ، ومن الأسماء التي وجدها كروفوت " الوليد " وأبان " وهي أسماء يغلب عليها أنها أموية .

ويتقصى ضرار أنساب القبائل التي في شرق السودان وأنساب البطون والعشائر ليرجعها إلي أصلها العربي . ومن بين تلك القبائل التي تحدث عنها قبيلة الفايداب . وآب كلمة بجاوية معناها آل وهي كثيرة الاستعمال بين القبائل . وقد جاء ذكر هذه القبيلة في مؤلفه " تاريخ قبائل بني عامر " بشرق السودان في الجزء الأول صفحة ١٦٠ من المخطوطة . ويذكر بأنه " وصل إلي سواكن من مكة المكرمة سنة ١٠٧٦ هـ الشيخ محمد أبن فايد ، وكان يتقاضى مرتبا سنويا من نائب شريف مكة المكرمة المقيم بمدينة سواكن . وقد كانت لدى الشيخ محمد فايد وثيقة تثبت هذا الحق له ولذريته من بعده . وجاء في هذه الوثيقة المحفوظة اليوم عند الشيخ الحسن أبو الحسن[٢٧] عميد عموم الفابداب بعد المقدمة :

" وجا مكيتك طاقّية وعمامة ستة عشر ذراعا وقميص بيتي وثوب بيتي وعلجة وقفطان وجبة خضراء وسراويل تركي وهذا أمر من السلطان . وجا مكية أبواتكم أصحاب الشريعة والطريقة والحقيقة . وأما كساوى حريمكم وأولادكم في كل عام أربعين أشرف ، وعشرة فوط من صابون ودابول ،

---

[٢٧] توفى الشيخ الحسن منذ سنوات وبقى من عقبه الشيخ محمد على ابنه ولكاتب هذه السطور معرفة وثيقة به ، وهو يسكن فى طوكر بشرق السودان هو من زعماء المنطقة وأعيانها.

وخمسة عشر ثياب منيرات لكم من السلطان إلي عند الحرمين الشريفين السيد زيد بن محسن كنز الفقراء والمساكين بهذه الجامكية ويشهد القرشي والفقراء كلهم أجمعين هذا والسلام " .

" وكانت ذرية الشيخ محمد فايد[٢٨] يستلمون حقوقهم هذه من محافظ سواكن أو مصوع حتى احتلت إنجلترا سواكن وإيطاليا مصوع سنة ١٨٨٤م " .

التجارة بين سواكن وجدة في القرن التاسع عشر الميلادي:

اهتم المؤرخ ضرار بتدوين ما وصلت إليه يده من معلومات عن التجارة بين سواكن وجدة على وجه الخصوص . وقد أفاد في كتابه " تاريخ سواكن " عن النشاط التجارى فذكر أن تجار سواكن كانوا يقدمون إلي الحجاز لغرضيْن الحج والتجارة . وكانت جدة في ذلك الوقت مركزا هاما لتجارة الحرير الذى كان يستورده تجارها من الهند في صناديق السيسم ويبعونها للتجار السودانيين . وبالإضافة إلي التجارة مع جدة فقد كانت هناك تجارة مع موخا والحُدَيْدة . ويضيف مؤرخنا بأنه كانت لكل من هذه المدن أسواق خاصة في أيام محددة لعرض البضائع الأجنبية ، فيقال سوق الخميس بالحديدة ، وسوق الإثنين بموخا . ويذكر أيضا " بأنه كان يتبع تجار سواكن بعض من تجار ينبع وجدة واليمن ومصوع ، فكانوا في حمايتهم حتى يعودوا إلي بلادهم سالمين " .وفي موضوع آخر يقول " إنه كان يقيم بسواكن

[٢٨] وقد جاء ذكر الشيخ محمد فايد في كتاب طبقات ود ضيف الله .

جماعة من التجار الأجانب من هنود ومصريين وحجازيين وألمان وطليان وفرنسيين " ولم يذكر صراحة أسماء من كانوا يقيمون فيها ولكنه أورد أسماء بعض سكان مدينة سواكن منهم محمد الشناوى ، وعثمان الليني ، والسيد عمر الصافى ، والدروبى ، وباحيدر ، والسيد الحضرى والشيخ على عبيد ، ومحمود البخارى والشيخ عبد الله مسلّم (الحربى) ، وسعيد عبد الله باعشر ، ومحمد ناصر باعفى ، والسيد الخميس ، وعلى شاويش الجداوى [٢٩]

وكانت أهم البضائع التى تستوردها الجزيرة العربية من السودان هى الرقيق والذهب ، كما كانت تستورد الجزيرة العربية نحو ألفين وخمسمائة من الرقيق سنويا . وكان سعر الذهب في سواكن عشرين ريالا أسبانيا (كذا) ويباع في الجزيرة باثنين وعشرين ريالا . وكان هذا قبل أن يوحد الملك عبد العزيز الجزيرة العربية تحت حكمه .

وعلى ذكر الأسعار التى كثيرا ما تشغل الأذهان فقد أورد ضرار ايضا أسعار بعض السلع في كتابه تاريخ سواكن فذكر بأن " قيمة الحصان في شندى (بالسودان) خمسة وعشرون ريالا إسبانيا ثم يباع في اليمن بمائة ريال أو مائة وخمسين . أما الجمال البشارية (جيدة جدا) فتباع في جدة بستين أو سبعين ريالا . وكل هذه الحيوانات ترحل بالسنابيك باعتناء شديد ، وأجرة ترحيل كل من الحيوانات هو عشرة ريالات " .

---

[٢٩] توجد هذه الأسماء في كتاب TWENTIETH CENTURY DECLINE OF SAWAKIN BY R.D. RODEN; SUDAN UNIT . وقد سأل هذا المؤلف ضرار عن أسماء العائلات التى كانت تسكن جزيرة سواكن والتى حضرت إليها من الجزيرة العربية .

تابع ضرار التجارة وأسعارها بين سواكن وجدة ويقول " ولقد عثرت على خطاب مرسل من أحد تجار سواكن إلي وكيله بجدة بتاريخ غرة رمضان سنة ثلاثة ومائتين وألف هجرية يوضح فيها أسعار بضاعته .

ويضيف بأن الأسعار كانت دائما بالذهب ، وكانوا يستعملون الأوزان الاتية وهي :

القمحة ثم القيراط وهو يساوى اربع قمحات والدرهم يساوى ستة عشر قيراطا ثم المثقال ويساوى درهما ونصف والأوقية تساوى اثنى عشر درهما .

ويعلق على هذه الأسعار بقوله " هذا يدلنا على أن التعامل بالريالات لم يكن منتشرا في ذلك العصر ."

وعلى ذكر الرسائل فقد أورد ضرار مزيدا من هذه الرسائل في مخطوطته " تاريخ سواكن " ومن بين تلك الرسائل التى وردت من جدة إلي بعض أهالي سواكن ما قاله في هذه الكلمات " أكثر الرسائل التى عثرت عليها في سواكن كانت ترسل من غير ظروف ، وكانوا يكتفون بطيها وكتابة العنوان هكذا:

إلي بندر سواكن – ويسلم ليد أخينا إسماعيل عامر – بدوح[٣٠] ومن الداخل متن الخطاب وها هو :

---

[٣٠] قيل إن الأمن كان مفقودا في إحدى بلاد المسلمين بسبب كثرة العصابات . فاتفق أحد التجار مع رئيس العصابات على أن يضع على خطاباته وبضاعته كلمة – بدوح – قيل إنه اسم التاجر – أو بدوح – في نهاية العنوان . فسلمت بضاعته بعد أن جعل للرئيس مبلغا من المال والهدايا . فعلم سائر التجار – بالسر المتفق عليه ، فقلدوا الكلمة السرية . فلاحظ زعيم العصابة كثرة التجارة وقلة دخله ، فانتدب من يسأل التاجر (صديقه) فاتفقا على تغيير الاصطلاح وجعلاه بالارقام ٨٦٤٢ وهذا

" قدوة الأكابر وعمدة الأعيان أخينا الحاج إسماعيل عامر سلمه ا لله تعالى آمين .

بعد مزيد من السلام عليكم ، وكثرة الأشواق إليكم . إنه مضى مدة من حين توجهتم ولم حضر لنا جواب لأجل الأطمئنان عليكم . وإذا كان متحسن بطرفكم بضاعة أرسلوا وعرفونا عنها لإجل إرسالها إليكم . وأيضا السبعة ريال فرنسية ونصف الذى أخذ توها منا قرضة (سلفة) نرجو إرسالها لأنكم تعلمون الحال ، ودمتم .

في ٩ ج (جمادى الأولى) سنة ١٢٥١ هجرية

الحاج

حسين الحيدر – بجدة

وهذا أيضا خطاب[٣١] آخر لناظر هيئة حكومية رسمية :

" سني الهمم ، جميل الشيم أفندم ناظر مجلس ومحافظ جدة نعرض إلي حضرة سعادتكم أن والدى عبد الرحمن صديق بنط[٣٢] . المتوفى في بندر سواكن بأن له دين عند الناس نرجو حضرة سعادتكم العلية إن نحن حولنا على هذا الاستدعاء إلي عبد ا لله _ أنا قائمقام ببندر سواكن وكل من عليها فان . ووالدنا له طلب عند جناب يطلبوا بحيث ماله وارث غيرى ونحن مرادنا نبرىء ذمة أبونا ولا يبقى حقنا إلا بالطريق الشرعى والنظر نظركم أفندم .

ودمتم سالمين أفندم .

الرقم بالابجدية معناه " بدوح " . وصادر اللصوص بضاعة كل من لم يستعمل الأرقام الاربعة . أ . ه

[٣١] كانت لدى هذا المؤرخ عدة رسائل عثر عليها في سواكن واستولي عليها أحد الإداريين البريطانيين الذي لا أذكر اسمه وقد تأسف المؤرخ فيما بعد على أنها ضاعت من يده .

[٣٢] معناها " رصيف " وتطلق على أكبر تاجر يورد بضائع بالرصيف (الجمرك) .

محرر ٢٦ ص (صفر) ١٢٥٥

عبد الواحد[٣٣] بن المرحوم عبد الرحمن

صديق بنط بسواكن

ويعلق ضرار على هذه الرسائل بقوله " إن الخطابات السابقة تخالف نظام المراسلات العربية التي كان يستعملها كتاب العرب إذ استنّها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يكتبون " من فلان بن فلان بسواكن إلي فلان بن فلان بجدة . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته الخ... أما ألفاظ التعظيم والتفخيم – فإنها مما أدخله العجم على اللغة العربية . وكان الحكام ورؤساء المصالح في البلدتين يرتاحون لهذه الصيغ إذ يرون أنها من الاحترامات .

وبعض المراسيم التركية تقتبس فيها بعض الآيات القرآنية والكلمات العربية . فقد شاهدت مرسوما تركيا يبدأ " سلطانم فضيلتلو عزتلو عطوفتلو .

" علو الهمم ، كثير الجود والكرم ، أفندم حضرتلو . " أشبو سند إيوان سلطان – وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " .

الملاحة والملاحون في البحر الأحمر :

اشتهر ملاحون من شاطىء البحر الأحمر بحذقهم ومهارتهم بسبب وعورة طريق البحر الأحمر وخاصة في الدخول إلي ميناء جدة أو ميناء سواكن حيث تكثر الشعبان . ويتحدث مؤرخنا محمد صالح ضرار عن ملاح

[٣٣] هو جد الأستاذ عبد الواحد أبو بكر راخجاق البكرى (هو أيضا توفي قبل عامين أو ثلاثة) .

عربي من ميناء ينبع يدعى حميد الينبعاوى كربان ماهر اعترف له الربابنة في الشاطئين بالحنكة والمعرفة . ونقل مؤرخنا حديثا فس سنة ١٩١٦ م من أحد البحارة السودانيين وهو الربان على داخلة وكان عمره أكثر من تسعين عاما في ذلك الوقت . قال " اشتهر في البحر الأحمر رجل كان يرعى أغنامه في جهة ينبع بساحل الحجاز (شمالي جدة) ، فشاهد ساعية (سنبوك) راسية بالساحل وحولها بحارتها يجهدون أنفسهم في إزاحتها إلي داخل البحر العميق فلا يقدرون بسبب اختلافهم عندما يزحزحونها . فكان الواحد منهم يسبق أخاه في الدفع ، أو بعضهم يقف والبعض يدفعها عساها تتزحزح من مركزها (المنزك) فلا يقدرون . وحميد ينظر إليهم مستاء من عدم تضامنهم في إخراج السفينة من المنزك . فأخذته النخوة وانضم إليهم وقال لهم : تعالوا هلموا ، واسمعوا ندائى ، ثم رددوه معا ، فإننى أقول ا لله ا لله ا لله – فحال انتهائى من الكلمة الأخيرة ادفعوا جميعكم الساعية معي إلى البحر كرجل واحد . فامتثلوا وأزاحوها من منزكها إلي الباحة (البحر الغريق) . ثم أقلعوا بالسفينة والرجل معهم إذ إئتمروا على الاستفادة من شدة ذكائه ونباهته في رحلاتهم البحرية . فدرس حميد البحار وطرق المراسى والأنواء والسير في الظلام الدامس على اتجاهات النجوم المختلفة ، وأصبح معروفا ارتيادها ،كما درس المحيط الهندى والخليج الفارسي ربانا . واشترى سفينة لنفسة يتنقل بها في الموانىء ناقلا من كل مرفأ بضائع التجار إلي سائر الثغور .

ويمضى ضرار قائلا " وقد تغنى الربان حميد كثيرا في وصف موانىء البحر الأحمر الشرقية والغربية ، غير أن اشعاره أقرب إلي السجع ، ولم يبلغنا منها إلا النزر اليسير الخاص بمراسي السودان التى كنا نمر بها . ولو

كان التدوين كثيرا لما فقدت . وقد انتقل كل الذين روينا عنهم هذه القصص إلي دار البقاء ".

" واشتهر حميد بأنه هو الربان الوحيد الذى كان يدخل بساعيته ميناء جدة من مضيق " أبو حمامة[٣٤]" لكثرة شعبانه . وقد حظرته الحكومة التركية . ولكن جاء جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فجعل ميناء جدة من أعظم موانىء الدنيا ودخلتها السفن " .

وتمضي رواية المؤرخ ضرار عن حميد الينبعاوي الذي مكث في سواكن حتى تقدمت به السن ، ثم جمع أهل سواكن وقال لهم بأنه يريد أن يعتزل البحر ليقضي بقية حياته مع أهله في ينبع .فطلبوا منه أن يعمل لهم دستوراً بحريا ليكون قانونا بين البحارة وأصحاب السفن . فوعدهم خيرا ، ثم شحن سفينته بضاعة من سواكن إلى العقيق التى في الشاطىء السوداني ، فلما قرب من مراسي الشيوخ اتجه نحو الشرق واتخذ طريقا خطرا ثم قاد سفينته بين الجزر والشعبان حتى إذا دنا من آخر جزيرة قاد سفينته إلي صخورها ، فارتطمت بها وتكسرت وغرقت ، وطلب كل امرىء النجاة بروحه . فوقف حميد على ظهرها ، وقال قوله المأثور " إذا غرقت السفينة وما عليها من مال وبضاعة فحكمه إلي قضاء الله وقدره ، والقبطان غير مسئول عما تحمله " .

فصار قوله هذا قانونا يعمل به إلي يومنا هذا . وكان في الزمن السابق يدفع القبطان قيمة البضاعة والسفينة التى ترتطم على يديه . وأكثر القباطنة يقضون عمرهم كرهائن للتجار إذا حدث منهم هذا الضياع .

---

[٣٤] قبل أن ابنه دخل بساعيته من نفس المضيق فلما قابل أباه قال له " يابا كبرنا العمامة ، ودخلنا من بوغاز أبو حمامة ".

ومن أعماله في الملاحة وتطويرها أنه أخترع الشراع " الفتينى " وكان للسنابيك شراعان كبير ، وقلمى أى صغير فاخترع حميد وابنه الثالث وسط بأن أخرجا من قماش الكبير نحو متر ونصف لا ستعماله عند ما تشتد العواصف والأنواء لدخول السنبوك إلي أقرب مرسى .

" وقسم حميد دخل السفينة بأن جعل نصف النولون لصاحب السفينة ويخصم منه كافة لوازم السفينة حتى أوانى أكل البحارة وصيد السمك للركاب . والنصف يقسم على عدد البحارة ، وللريس أن يأخذ حصة أربعة بحارة ، وللمقدم حصة بحارين .

ثم يمضى المؤرخ في الحديث عن حميد " فيأتى بما وعته الذاكرة من سجع حميد بن منصور إذ قال :

راس كسار
يدور ربان شوير
طروبة ومندروبة
لا يغرنك سعد علام
وقدوا لي وقيده
حسبونى هريدة
أنا حميد بن منصور
بجاه الرسول يدور
عقيق أسقى من البير
عمارات نعم سرير
ا لله يلعن راس عسيس
يدور مفاوله كثير

ترمبو وترِنْكَتاتَ
وقطعة الهاوى مع الشاتات
خل عنك جزيرة أمير
وادخل وفوت بلا خبير
شيخ سعد نور أبو نورين
في السما مثل السماكين
شيخ ها بونى خيارى وخيار المراسي
تدخله بالليل وقلبك قاسي
فوت هيدوب ولقاق
واخرج قبل الرقراق
سواكن سنية الكيان
الممدودة في وسط الشام
الغشيم يقول الرواشين بان
قاد الرقيق ودامات
سعدك بلاش زمنك فات
عين هريس وجزيرة عبد الله
كلها قواسي خلق الله
شيخ برغوت وتوارتيت
سمعنا بالليل رقيص
في سواكن سنة رخيص
درور مهمة
وفجة مثل الرمة

ولما وصل حميد بسفينته جبل مقرسم بقرب محمد قول (قرية على الساحل السوداني) اتجه نحو الشرق ميمما مدينة جدة وهى إزاءه وقال

با لله شارى شروم

ا لله يغنيك ياخشب اليوم

وكما ذكر المؤرخ فإن هذه المراسى في الساحل السوداني ولم يذكر شيئا عن الساحل العربي أو غيره .

ولعل ما كان يتغنى به حميد الينبعاوي أشبه ما يكون بما كان يتغنى به الملاح العربي الشهير ابن ماجد ، فهو أيضا كانت له اجتهادات في الشعر (البحرى) لم تكن موفقة من ناحية الوزن واللغة دائما ولكنها كانت تسكّن ما يجيش بصدر الملاحين ، تماما كما كان المسافرون على ظهور الإبل في الصحراء يفعلون بالدوبيت .

ولا شك أن كلمات هذا الربان ذات أثر كبير على الملاحين السودانيين فهم لا يعرفون العربية جيدا ومع ذلك فإن البحار على داخلة حفظ كلمات حميد الينبعاوى . وهذا الغناء البحرى يعتمد على الصوت وما تثيره الأماكن من مشاعر في النفس . وقد كان حميد كما جاء في سيرته التى أفاض فيها ضرار أنه جَوَّاب آفاق له مغامرات البحارة في المؤانىء ، فمن يدرى ماذا فعل في كل من هذه المراسي .

ويورد المؤرخ السوداني ضرار شيئا عن المباريات الرياضية بين الأراضي السودانية والجزيرة العربية فهو يحدثنا عن سباق حدث بين سنبوك من سواكن وآخر من جدة وكان اسم السنبوك السواكني " المتوكل " وصاحبه الشيخ دفع ا لله ، واسم السنبوك الحجازى " الواقف " ولكنه لم يذكر اسم صاحبه ، وقد تحدى رباناهما أحدهما الآخر ، وأقلعا من جدة إلي

سواكن . ولما كان بحارة " المتوكل " متوجهين إلي بلدتهم سواكن فإنهم وربانهم جدوا واجتهدوا ، وكان الواقف قد تحرك قبل المتوكل " فلما جاء الليل قال ربان المتوكل للبحارة أنزلوا الفتين واستبدلوه بالشراع الكبير ، فنظر البحارة إلي بعضهم بعضا ، فقال لهم إن في ذلك خطورة علينا وعلى السنبوك ولكن اعلموا أننا قاصدون أهلنا ويجب ألا يسبقنا الواقف . فامتثلوا وصار المتوكل يغرف من البحر بجانبه إلي داخله ، والبحارة يمسك كل منهم صفيحة يغرف بها الماء من الساعية إلي البحر ، واستمر يومين على هذا الحال . وفي صباح اليوم الثالث دخلوا سواكن عند شروق الشمس يضربون الطبول والصفافير بصَدَفَة أبو حلمبو الكبرى ، وعلقوا عمائهم على العيارات (حبال الدقل أو الصاري) وكأنها أعلام . فتسابق الناس إلي ساحل الكورنتينة فعلموا من ربان المتوكل خبر السباق .. ولما كان الظهر وصل الواقف وكان يظن أنه السابق .. فشاهد خصمه المتوكل وبهت ولم يدر ما يفعل فاستسلم ورسا بجانبه " .

وفي سواكن لقي أصحاب السنبوكين الكثير من التقدير والاحترام والإكرام وأكل كل سنبوك منهما ثورا وثلاثة خراف وكيسين من الأرز وصفيحتين من السمن !

و أوصل إلينا هذا المؤلف إحدى الرحلات البحرية التى دونها ناخودة سافر بسنبوكه من سواكن إلي جدة ، وهى توضح الطريق البحرى بين سواكن وجدة . وقد كتبت هذه الرحلة بلغة بحارة البحر الأحمر ، وشرح المؤلف ما عمي من ألفاظها . وكان تاريخ الرحلة هو ٧ رجب أصم سنة ١٢١٥ هـ ، ووصلت الساعية إلي جدة في ١٠ شعبان من نفس السنة . ولم تكن الرحلة رحلة مباشرة من سواكن إلي جدة بل كانت فيها بعض الوقفات

ومن ثم فقد طالت بعض الوقت ولا يمكن مقارنتها بالوقت الذى استغرقه سباق السنبوكين الواقف والمتوكل .

القضاء الشرعي بين سواكن ومكة المكرمة :

يفرد المؤرخ السوداني محمد صالح ضرار في كتابه " تاريخ سواكن " فصلا خاصا بالقضاء الشرعي في مدينة سواكن فهو يقول بأنه " لم يكن القضاء الشرعي معروفا بحالته الراهنة في الزمن السابق حتى استيلاء الأتراك على أرض الحرمين ومدينتي سواكن ومصوع ، وأصبحت كلتاهما تابعتين للحجاز ، وأصبح تعيين الموظفين من قبل والي الحجاز ...

وبعد أن استقرت الأحوال بسواكن .. وردت التعليمات من اسطنبول إلي قاضي قضاة مكة المكرمة بأن ينشيء محكمة شرعية بسواكن ويعين فيها أحد علمائها لمنصب القضاء الشرعي . فوقع اختياره على القاضي الشيخ محمد محي الدين القُمَّلِي ، وهذا دليل على أن العلاقات العلمية بين أهل سواكن وأهل مكة المكرمة كانت قوية إلي الدرجة التى أصبح فيها بعضهم يعرف بعضا . وطلب من محمد محي الدين كل من والي الحجاز وقاضي قضاة مكة أن ينشيء محكمة شرعية . فاعتذر محمد وقال إنه عازم على مجاورة الحرم الشريف . فقال له الوالي لك الحق في أداء الحج سنويا على حساب الباد شاه ، وإنك تتلقى التعليمات دائما من قاضي مكة المكرمة ، وليست للمحافظ أي سلطة على أعمالك .

وافق القاضي محمد واستلم من قاضي قضاة مكة المكرمة المنشور الوارد من شيخ الإسلام بالآستانة للعمل بمقتضاه في المحاكم الشرعية الحنفية في أملاك الدولة العلية .

ويمضي ضرار قائلا " وها هو نص المنشور وقد تحصلنا عليه وعلى بقية الوثائق الشرعية من حفيده صديقنا الأستاذ الكبير[٣٥] عبد القادر أوكير القاضي – نائب مدير المعارف السودانية ." ونحن ننقل هذا المرسوم كما وجدناه مكتوبا بالضبط كما تقضى بذلك أمانة النقل . وهذه المراسيم جميعها مكتوبة بخط رقعة جميل جدا يحق أن يطلق عليه سلاسل ذهبية " هذا صورت الأمر العالي السلطانى أدامه ا لله تعالى آمين .

قاضى مكة حالا

الختم[٣٦] – ا لله ولى التوفيق .

أقضى قضاة المسلمين أولا . ولأن الموحدين معدن الفضل واليقين . رافع أعلام الشريعة والدين ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، المختص بمزيد عناية الملك المعين مولانا قاضى مكة المكرمة زيدة فضائله . فعند وصول توقيعنا الرفيع الهمليونى[٣٧] ، وخطابنا السامى المنيف الخلفانى ، فليكن معلومك ، وليرسخ في مفهومك ، أن الباعث لصدور ولات الأحكام الشرعية ، والموجب لتنصيب النواب في محاكمنا العثمانية من سالف ترتيبات أسلافنا السلاطين العظام ، وعادات أجدادنا ملوك الإسلام فما هو جل

---

[٣٥] يقيم الاستاذ عبد القادر أوكير (الخير) الآن في سواكن وقد تقاعد بعد كتابة المؤلف لهذه الكلمات وهو على صلة قوية وروابط قربية بأسرة المؤلف ويمكن الاتصال به .

[٣٦] الاسم غير واضح .

[٣٧] السلطانى .

مقاصد مرامهم في كافة الممالك المحروسة إلا محض تحصيل راحة العباد ، وترقية حال الفقراء في كافة البلاد ، وإجراء أحكام الرب المعبود ، وقرار اطمئنان خليفته في حما ظل عدله المحدود ، لانتظام ما يحدث للأنام ، من التقاضي في الدعاوى بين أيدى الحكام ، موجب شريعة سيدنا محمد الأنام ، وتقسيم مخلفات أموال المسلمين للورثة ، وحفظ أموال الأيتام من صغير وصغيرة ، وتسجيل أمور أهل البلاد لمحافظة حقوقهم في القرب والبعاد . فهذا جل المرام ، من توليت الحكام في الأنام . فمن مدة أيام عديدة وقع الاختلال بمكة المكرمة في كل حال ، ولم يعتبر في الأحكام الشرعية بالتحرى. فاليعلم مولانا الموحى إليه ، المعمول في الأحكام الدينية عليه . عند وصولك عنه تعالى إلي مكة المكرمة ، والبقعة الطاهرة المعظمة ، أن تبذل جل همتك بالإقدام ، في إجراء الشريعة في الأحكام ، وتدقق إمعانك في ذلك الخصوص على الدوام . ومهما يقع من الدعاوى الشرعية ، وتحرير التركة للأموات وأموال الأيتام ، وتقوم بالعمل في ذلك بالوجه الشرعي ، والقانون المنيف المرعى ، وإذا وقع شأن من ذلك ولم يكن صغير ولا صغيرة ، وغائب وغائبة ، ولم يطلبوا الورثة القسمة ، فلا يجير في القسمة بين الوارث ، فأول ما يخرج دين الميت المثبوت بالوجه الشرعى ، وبعد إخراج الديون يخرج من المال الموجود لحكام الشرع وخدامهم ما خصص وعين لهم بتجويز فقهاء الإسلام هو ربع العشر كالزكاة وهو خمسة وعشرون أخشة[٣٨] في الآلف الأخشة . وأن لا يؤخذ حبة زيادة ، وتقسيم ذلك الربع العشر على خدمة المحكمة للكتاب والمحاضر على القانون القديم ، والرأب المستديم ، وأن تحكم فيما يبدو من فتاوى العباد بالوجه الشرعى بأقوا الأقوال المفتى عليها

[٣٨] أقل قطعة في العملة السلطانية .

من الأئمة العظام رضى الله عنهم ، ويكون الفصل والحسم بذلك ، والحذر من وقوع خلاف ما هو مسطور في فرماتنا العالى المنيف . فلموجب ذلك أصدرنا أمرنا هذا إليك . فالآن المطلوب أن تكون ممثلا لأمرنا مجربا للأحكام بالوجه الشرعي بمزيد من الاهتمام والديانة ، والتحقيق بأقوال المجتهدين المفتى بها المعمول بمسائلها ، وأن لا يقع الحيف على أحد بخلاف الشريعة الغراء وتكون مستجلبا بذلك صالح الدعوات من الخاص والعام في شريف ذلك المقام لا ستحصال رضانا كما هو القصد والمرام " .

ويضيف هذا المؤرخ بأن أهل سواكن وما جاورها الذين لم يكونوا حنفية اعترضوا على هذا التعيين إذ كانت الأحكام الحنفية جديدة عليهم إذ كانت أغلبيتهم من مذهب الإمام الشافعي ، لذلك قاطعوا المحكمة والحكومة ، ولم يلجأوا إليها حتى لقي الشيخ محمد محي الدين ربه .

ولم تغير وفاة الشيخ محمد محي الدين من موقف تعيين القاضي الشرعي بسواكن لأنه بعد وفاته عين ابن الشيخ محمد ، وهو الشيخ عمر . وقد تعين بمرسوم قضائي صادر باللغة التركية – كما يقول ضرار – وموقع عليه في نهايته بالختم الآتى :

" يامفتح الأبواب ، افتح لنا خير الأبواب – محمد عبد الوهاب " وعلى هامشه الجمل الآتية باللغة العربية :

" واعرف حضرة أفندينا المكرم المفخم المعظم بأن علماء الحنفية صرحوا في كتب الفقة ، لا ينفذ حكومة القاضي الشافعي على الحنفي إلا إذا قلد مذهب الإمام الأعظم ، وصدر المنع من حضرة السلطان على هذا والسلام ."

تمسك الشيخ عمر بحرفية الفرمان ، وكان حازما في أحكامه. واعترض على أحكامه قائمقام سواكن ، وحدثت بينهما مشادة عنيفة اضطر على أثرها أن يعزله من القضاء ، فسافر الشيخ عمر ورفع الأمر إلي قاضى القضاة بمكة المكرمة ، ورفع شكوى أخرى إلي والي الحجاز الذي أمر قائمقام جدة كي يكتب لمحافظ سواكن ، فامتثل وأورد الجواب الاتى ، وهو على حد قول ضرار ، صورة طبق الأصل : قدوة الأماجد وعمدة الأعيان ، رفيع الشان المكرم المحترم حالا قائمقام بندر سواكن الحاج محمد أغا زِيدَ مجده .

بعد التحية والتكريم ، والمعزة والتسليم ، تحيطون علما لا خافيكم من خصوص الشيخ عمر افندى محى الدين ، قاضى سواكن سابقا ، فالمذكور فهو رجل صالح من ذوى البيوت ، ومن قديم الزمان قائم بخدمة الشريعة النبوية ، وإجراء مراسيم احكام الطريقة السنية المصطفوية ، وهو أهلا ومحلا في تلك الجهات إلي هذه الخدمة الشرعية . والآن بلغنا أنه بعد تعاديه ببعض أهل السوء عزل ، ففى حال وصول كتابنا وأمرنا إليكم ، وفهمتم ما فيه من مسطور في أثناء السطور ، تشملوه بجلول أنظاركم ، وتؤيدوه وتقيموه في خدمته كما كان من غير توقف ولا امتحان . وأنت ياشيخ عمر افندى محى الدين تكون في خدمتك مقيم على الصراط المستقيم ، وتكون موافق قائمقام المذكور في كافة الأمر وبالك أن يحوز على الرعايا منك قصور ، وهذا وصل هذا الأمر إليكم اعملوا بما فيه ، الحذر ثم الحذر من الخلاف ، واعتمدوا ختمنا ومهرنا والسلام .

حرر في ٢٣ جا (جمادى الأولى سنة ١١٩٦ هـ) الختم

محمد كبير قائمقام بندر جدة حالا

تسلم فضيلة الشيخ عمر نسخة من الخطاب واستأنف أعماله حتى سنة ١٢٠٧ هـ حين انتقل إلي دار البقاء . وخلفه ابنه فضيلة الشيخ سليمان أبن عمر .

فاتفق الحاكم والأهالي على أن يخلفه أحد فقهاء المذهب المالكى فسمع قاضى قضاة مكة المكرمة بما أتاه القائمقام من مخالفة النظام الشرعي لدى حكومة العثمانيين فأرسل إليه الخطاب التالي – وهو أيضا نسخة طبق الأصل :

" قدوة الأماجد والأعيان ، قائمقام بندر سواكن حالا كورد محمد أغا زيد مجده . وقدوة النواب المعتبرين ، نائب الشرع الشريف ، القاضى أحمد سالم وعمدة ذوى الافتا والتدريس ، مفتى بندر سواكن حالا المفتى محمد رشد ، زبدة علومهم ، وسائر من له مدخل فيما سيذكر فيه خصوصا وعموما . تحيطون علما جميعا أنه أخبرنا الحاج إبراهيم أغا قام قام سواكن سابقا ، وكذلك أخبرونا جميع الواصلين من بندر سواكن ، ومن جملتهم إبراهيم جوزمجى المباشر ، وذلك من خصوص مسجد الحنفى أن في السابق كانت إمامته وخطابته يباشرها كل قاضى حنفي ، والآن القاضي الموجود مذهبه مالكى ، فعند ذلك استحسنا بأن يكون المباشر لوظيفة هذا المسجد مذهبه حنفى ، فسألنا أهل سواكن وغيرهم ممن له وقوف على من يصلح لمباشرة الوظيفة فأخبرونا عن الشيخ عبد القادر بن الشيخ عمر افندى محى الدين أنه من الصالحين . وكانت الوظيفة المذكورة يباشرها والده وأخيه . فعند ذلك أقمنا الشيخ عبد القادر افندى عمر إمام وخطيب المسجد الحنفى الكائن ببندر سواكن . فمن حال وصول أمرنا هذا إليكم تعلمون بمضمونه ،

ولا تعارضوا المذكور فيما ذكرناه ، والحذر من المخالفة وسلوك الخلاف وختمنا عمدة ... الاعتماد

وهو حسبنا ونعم الوكيل . ٢٢ في مجرم الحرام سنة ١٢٠٨

محمد كبير قائم قام

جدةً حالا

وبناء على ما تقدم عزل القاضى المالكى وخلفة الشيخ عبد القادر أبن عمر الذى بعث إليه قاضى قضاة مكة المكرمة بالمنشور الآتى:

كى يعمل بمقتضاه في أحكامه وأوامره .

الحمد لله وحده

الذى يعلم به الشيخ عبد القادر عمر قاضى حنفى سابق[٣٩] أنا قد أقمناك من طرف الشرع الشريف وكيلا من السلطان ، نائباً بأرض بندر سواكن ونواحيه[٤٠] ، والتحكم بأصح الأقوال على مقتضى مذهب إمام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، وأوصيناك بتقوى الله في السر والعلانية ، وأن تسوغ ما يسوغ للثواب فعله بمقتضى الفرمان السلطانى ، وأن لا يؤخذ من التركات المقسومة إلا ربع عشر كالزكاة ، وإنك في حال الفقراء والمساكين ، وتقسم مخلفات أموال المسلمين على الوارثين لهم بمقتضى الفريضة الشرعية ، وتعمل بموجب الفرمان السلطانى المقروء بمحكمة مكة المكرمة بحضرة جميع أعيان المسلمين . وتقيد صورته بالسجل المحفوظ الشريف . وما هو الواقع جرى وحرر في عشرين من شهر محرم الحرام

---

[٣٩] يعلم من هذا أنه خلف أخاه القاضي سليمان ثم عزل ثم تولى ثانيا .

[٤٠] من هنا يعلم أن سلطة تولية قضاء ضواحى (مراكز) سواكن أصبحت لأول مرة بيد القاضي عبد القادر .

افتتاح سنة ١٢٢٩ هـ ألف ومائتان وتسعة وعشرين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الفقير السيد محمد صديق

القاضى

بمكة المكرمة حالا

وقد عزز محمد على باشا عند ما جاء الحجاز وهو يستعد لقتال السعوديين موقف القاضى عبد القادر في سواكن وأرسل منشورا بذلك إلي قائمقام بندر سواكن ، كما أنه ذكرهم " بأن قاضي مكة المكرمة نصب الشيخ عبد القادر زيد فضله قاضيا لبندر سواكن حالا لأنه لا يجوز القاضى يكون إلا حنفي المذهب " ثم قال له الحذر من المعارضة في ذلك " . وكان ذلك المنشور في غرة محرم ١٢٣٠هـ .

وجاء الخطاب التالي أيضا من قائمقام بندر جدة إلي أهالي سواكن في تعضيد الشيخ عبد القادر .

منشور عام

خطابا إلي أهالي بندر سواكن ، والعلماء والفقهاء ، الأكابر والأعيان ، التجار والأصناف ، فليحيطون علما بأنه بحسب قواعد القديمة ، ونظاماة المستديمة قاضي الذي يجلس في ديوان الشريعة لم يكن غير من سلالة مذهب الحنفية ، وبما أن – عادة أفندينا ولى النعم المعظم دام إجلاله سابقا نختار حامل مرسوما هذه الشيخ عبد القادر ، ولبسه قاضيا على بندر سواكن وكذلك نحن من بعد ما استفحصنا ، وتدققنا على المذكور ، فلم رأينا منه صدر أمر مخالف الشريعة يستحق بها العزلة . فمن بعد تحقيقنا ذلك يوم

تاريخه ألبسناه كورك[٤١] القضاة ، وجعلناه قاضيا على بندر سواكن ، فالواجب واللازم على الكل في متوللى بندر سواكن يكن مطيعا لأمر وساسعا لقوله ، والآن متوجه صحبة قائمقامنا المرسول من طرفنا حسين افندى فليكن معلوما عندكم والسلا م

الختم ياخفى الألطاف نجينا مما نخاف عبد رستم أغا آمال كمرك

في ٣ محرم ١٢٣٦ عبد رستك ١٢٣٠ بندر جدة حالا

غير أن القاضى عبد القادر أصيب بحمى وهو في مكة المكرمة توفي على أثرها وعاد ابنه الشيخ حسين بالكسوة والوثائق التى تتعلق بتعيين والده إلي سواكن . وكان الشيخ عبد القادر هو آخر من تم تعيينه من القضاة السودانيين بواسطة قاضى قضاة مكة المكرمة وأصبح ذلك يعنى أنتهاء الصلة بين القضاء الشرعي في شرق السودان وبين الجزيرة العربية إذ بدأ تدخل البريطانيين في شئون السودان وأصبحت سواكن جزءا من إمبراطورية إسماعيل باشا خديوى مصر ، وانقطعت الأسباب التى تربط الجانبين على الصعيد الرسمى .

توثقت العلاقات الاجتماعية كثيرا بين جدة وسواكن خاصة في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده . وقامت هجرات أسرية من الجانب العربي إلى الجانب السوداني ، وانتقلت أسر عديدة من جدة إلى سواكن حيث أقاموا هناك عددا من (البيوتات) التجارية ربطت الحياة الاقتصادية بين الشاطئين . فمن أولئك الذين استقروا في سواكن بعد

[٤١] تطلق على روب القضاء الشرعى الممتاز في ذلك العصر .

خروجهم من جدة أخوالنا آل على الزهيري وأبناؤه حسن ومحمد ، وأخواتهما عائشة وخديجة وفاطمة وحليمة طيب ا لله ثراهم . وممن تزوج في هذه العائلة أبناء سليمان الأنصاري . وما زالت هذه العلاقات الأسرية بين آل زهيري في المملكة العربية السعودية وشرق السودان قائمة متينة ، وأصبح عدد أفرادها أكثر من سبعين أسرة وثلاثمائة شخص . وللشيخ عبد اللطيف جميل وذريته صلات قوية بأقاربهم من آل الزهيرى وسليمان وشمس في بورسودان الآن . وكثيرا ما يقوم هذا النفر بصلة الرحم بين أبناء هذه الأسر وبنيهم . ونزح إلى سواكن آل باعبود ومن أنجالهم الذين شاركوا في كثير من بناء الصروح التعليمية والمستشفيات وغيرها محمد وأحمد ، وقام أبناء باوارث بمثل عملهم ، كما لم يتوان على مريشد في تقديم ما يقضي به ا لله من صالح الأعمال .

ووصلت جماعة من آل كيال إلى سواكن ، وكانت وما زالت معروفة بحسن الأحدوثة ، وكذلك أبناء الدومي وعلى الجداوي وآل باعشر والسيد الصافي وخميس وصالح الكردي والجرتلي وكثير غيرهم مثل عميد أبناء خؤولتنا آل مسلم الحربي الذين عاد بعض إفرادهم إلى المملكة في هذا القرن ، ولكن ما زالت صلاتهم قوية بمن بقي منهم في شرق السودان وعاصمته . ومما هو جدير بالذكر فأن من عاش من هذه الاسر في السودان أصبح سوداني الهوى والوجدان ، وكان منهم من ناضل ضد الحكم البريطاني في بورتسودان مثل الشيخ مصطفي مسلم الحربي إذ كان من كبار قادة المظاهرات الوطنية ضد الاستعمار البريطاني . وكان يقود جموع أبناء البجة الذين ثاروا بعد الحرب العالمية الثانية على الوجود البريطاني في السودان ، واستشهد منهم عشرات الرجال وهم يرفضون ذلك الاستعمار .

وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين ، بل منذ توحيد الجزيرة العربية على يد قائد الأمة الإسلامية الفذ الملك عبد العزيز آل سعود اهتم ولاة الأمر في المملكة العربية السعودية بالسودان وأهله ، وكان من أبرز أعمال العاهل السعودي الأول أن أبطل دفع المكوس التي كانت مفروضة على الحجاج القادمين من سواكن الى جدة . وكان الحجاج الأفارقة الذين يقدمون للحج عن طريق سواكن يعانون الكثير من دفع هذه الرسوم ، فكانوا يتهربون من دفعها عن طريق الإقلاع في السنابيك خلسة من سواكن وبورتسودان ، ويذهبون إلى شواطئ المملكة بعيدا عن أعين الجهات الرسمية. وكثيرا ما كان ربابنة السنابيك يقذفون بهم في شواطئ مجهولة إما في الساحل السوداني أو السعودي ، فينزلون في براري صعبة العبور ، ويموت منهم كثير إما في البحر وإما في البراري تماما كما كان يحدث في العصور الوسطي كما روى لنا ابن جبير . ولكن في تلك العصور أوقف هذا المكس الجائر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وفي هذه العصور أبطل المكس الملك عبد العزيز آل سعود صاحب الأيادي البيضاء ، فارتاح المسلمون الأفارقة ، وكثر توافدهم لأداء فريضة الحج .

وورث أبناء العبقري السعودي الملك عبد العزيز هذا التعاطف مع السودان ، فكانوا خير معوان له في محنه والكوارث الطبيعية التي ألمت به . وكان من بينها ما أعلنه خادم الحرمين الشريفين من عطاء قدمه من ما له الخاص لاهل السودان عند ما المت بهم الفيضانات والأعاصير في عام ١٩٨٦ . وكان عطاؤه سخيا كما كانت هبات أبناء مملكته محمودة الأثر . وهزت هذه الأريحية بعض شعراء السودان ، فأرادوا أن يعبروا عن شعورهم

وتقديرهم . وقد قال أحد شعرائهم في الملك فهد عند إعلانه بتبرعــه ، فقـال هذا الشاعر فيما قال :

ما ضاع حق كنت من طلابه ... أو خاب مسعى سرت في أعقابهِ
في كل نازلة تقيم سياسة ... غراء من ذاك الفؤاد النابه
كم وقفة لك في الورى ميمونة ... كانت من شفاء من عظيم مصابه
في المغرب العربي شبت فتنة ... أودت ببعض كهوله وشبابه
فمضى ركابك نحوها فتوهجت ... بشرى تزيح الشر من أسبابه
وكذا فعلك حين طاشت حكمة ... في أرض لبنان وبين شعابه
فغدت تباشير السلام تظله ... وتطل بين حزونة وهضابه
أما فلسطين فأنت لشعبها ... سند تزوده بما يرضى به
وطفقت تدعمه بكل وسيلة ... كيما يعيش معزّزا بترابه
ولئن نسيت فلست أنسى محنة ... جلبت على السودان ما أزرى به
فوقفت وقفة أو حد ووهبته ... ماء الحياة ليشتفي مما به
أما العراق فقد دحرت غزاته ... ورعيت حرمة أرضه ورحابه
وظللت تدفع عنه كل ملمة ... حتى جلبت النصر بعد ذهابه
قد قالت الأيام إنك أوحد ... في عزمه وثباته ولبابه
هذا الذي في الخطب يأتي مسرعا ... من غير أن يدعى لصد عبابه
واستنهض الشعب الكريم بجوده ... فأتوا بمأثور الندى وعجابه
يعطي ولم يسأل ويسخو باذلا ... من ماله وطعامه وشرابه
بل يضرب المثل العظيم ليحتذي ... بخطاه شيبة شعبه وشبابه
يقظان لا خوفا على إخوانه ... من حادثات الدهر أو انيابه
أيخاف من دهر بدت أنيابه ... والدهر مهما كان من حجابه

يا خادم الحرمين جودك واسع ... قد عمنا كالغيث في تسكابه

كالبدر في لآلائه والبحر في ... أبعاده والظل في استصحابه

قالوا لنا هذا الذي أفعاله ... تسمو على ما كان في أترابه

هذا الذي الإحسان من أفضاله ... والبر والإسعاد ملء إهابه

والسعد رفرف في ذرى راياته ... والنصر وطن نفسه برحابه

قلنا لهم لا تظلموا أخلاقه ... وتبينوه فكلنا أدرى به

واستنبطوا لكُمُ صفات لم تكن ... معروفة للناس في إضرابه

هذا الذى الإحسان من أفضاله ... والبر والإسعاد ملء إهابه

والسعد رفرف في ذرى راياته ... والنصر وطن نفسه برحابه

لما أطل على الأنام تطلعوا ... من أرضهم كالزهر في اشرئبابه

وتوسموا الخير العميم فكأن ما ... يرجونه من رأيه وحسابه

هذا الذي يدلي برأي ثاقب ... كم جرد الرئبال من أنيابه

تنبو السيوف إذا سللن ورأيه ... أبدا يصيب ولو بجفن قرابه

وأبان معجزة الإله بأرضه ... لما أقام الحكم طبق كتابه

وأفاض من سنن النبي هداية ... للمؤمن الساري إلى محرابه

من مثل هذا القطر في عليائه ... من مثله في الأمن واستتبابه

هذا بعض ما قاله الشعراء السودانيون اعترافا بالفضل لأهل الفضل .

ولم يقتصر عطاء المملكة الى السودان على كوارث الأنواء والأمطار والفيضانات والأعاصير ، ولكن تخطاها إلى كل كارثة أخرى وأصبحت يد منظمة الإغاثة الإسلامية تقدم ما قسمه الله ، وصار الحديث الشريف المؤمن أخو المؤمن هو الشعار الذي تستنير بنوره هذه المنظمة .

ومنذ توحيد الجزيرة العربية على يد الملك الراحل عبد العزيز آل سعود فتح الباب للسودانيين للعمل في المملكة ، وعملوا في كل مجالات العمل. وعندما اتسعت ظروف العمل في النصف الثاني من القرن الميلادي العشرين تدفقت أعداد كبيرة من أبناء السودان ليعملوا جنبا إلى جنب مع إخوانهم السعوديين في كثير من المرافق الحكومية والقطاع الخاص . وما زالت هذه العلاقة سائدة في المملكة ، وأصبح التآخي والعلاقات الثقافية والعملية والاجتماعية وثيقة الصلة بين البلدين الشقيقين .